

الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ
عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى
إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتِطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا
يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا
فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

فلا تصاحبني : أى فلا تجعاني صاحباً لك ، بلغت من لدنى عذراً : أى وجدت
عذراً من قبلى ، قرية : هى أنطاكية كما روى عن ابن عباس أو الأبله أو الناصرة ،
ولا يوثق بصحة شىء من هذا ، استطعما أهلها : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، أن
يضيفوهما : أى ينزلوهما أضيافاً ؛ يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وأضافه وضيّفه : أنزله
لديه ضيفاً ؛ وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال ، جداراً :

أى حائطا ، أن ينتفض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم كما قال :

يريد الريح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل
أقامه : أى مسح يديه فقام كما روى عن ابن عباس ، والتأويل من آل الأمر
إلى كذا : أى صار إليه ، فإذا قيل ما تأويله : أى ماصيره .

المعنى الجملى

لا يزال الكلام متصلا فى قصص موسى والخضر عليهما السلام ، ولكن لوحظ فى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزاءه الثلاثين جانب اللفظ لاجانب المعنى ، ولذا تجد نهاية جزء وبداءة آخر حيث لا يزال الكلام فى معنى واحد لم يتم بعد كما هنا .

الإيضاح

(قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) زاد كلمة لك على سابقه لتشديد العتاب على رفض الوصية ، ووسمه بقلة الصبر والثبات حين تكرر منه الاستمزاز والاستكبار مع عدم الارعواء بالتذكير أول مرة .

قال البغوى : روى أن يوشع كان يقول لموسى : اذكر العهد الذى أنت عليه .
(قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) أى قال موسى عليه السلام :
إن سألتك عن شىء بعدها من عجب أفعالك التى أشاهدها وطلبت منك بيان حكمته ، فضلا عن المناقشة والاعتراض عليه ، فلا تجملنى لك صاحبيا .

(قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد بلغت الغاية التى تعذر بسببها فى مراقي ، إذ خالفتك مرة بعد أخرى ، وهذا كلام نادم أشد الندامة قد اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف .

وقد زوى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة » .

(حياء وإشفاق من الدم) فقال (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) «

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) أي فانطلق الخضر وموسى بعد المرتين الأوليين حتى وصلا إلى قرية طلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا أن يضيفوهما ، وفي الحديث « كانوا أهل قرية لثاما بخلاء » وفي قوله (فأبوا أن يضيفوهما) دون أن يقول فأبوا أن يطعموهما - زيادة تشنيع عليهم ووصفهم بالدناءة والشح ، فإن الكريم قد يرد السائل المستطم ولا يعاب ، ولكن لا يرد الغريب المستضيف إلا لثيم ، ألا تراهم يقولون في أهائهم : فلان يطرد الضيف : وعن قتادة شر القرى التي لا يضاف فيها ، ولا يعرف لابن السبيل حقه .

(فوجدوا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) أي فوجدوا في القرية حائطا مانعا مشرفا على السقوط فسحبه بيده فقام واستوى ، وكان ذلك من معجزاته .

(قال لو شئت لانتخذت عليه أجرا) أي قال موسى ذلك تحريضا للخضر وحثاله على أخذ الجمل والأجر على فعله ، لإنفاقه في ثمن الطعام والشراب وسائر مهام العيشة .

(قال هذا فراق بيني وبينك) أي قال الخضر عليه السلام لموسى : هذا الاعتراض المتوالى منك هو سبب الفراق بيني وبينك على حسب ما شرطت على نفسك ، وإنما كان هذا سبب الفراق دون الأولين ، لأن ظاهرهما منكر فكان معذورا دون هذا ، إذ لا ينكر الإحسان إلى السوء بل يحمده .

(سأنتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أي سأخبرك بماقبة هذه الأفعال التي صدرت مني ، وهي : خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، وما لها خلاص السفينة من اليد الغاصبة ، وخلص أبوي الغلام من شره مع الغور بيدل حسن ، واستخراج اليتيمين للكنز .

وفي قوله : (بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) دون أن يقول بتأويل ما فعلت ،
أو بتأويل ما رأيت ونحوهما - تعريض به عليه السلام وعتاب له .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ
يُبَدِّلَهُمَا رِهْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رِجْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ،
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

شرح المفردات

المساكين : واحد مسكين ؛ وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر في نفسه
أو في بدنه ، يعملون في البحر ، أي يؤاجرون ويكتسبون ، أعيبها : أي أجعلها
ذات عيب بنزع ما نزعته منها ، وراءهم : أي أمامهم ؛ وهو لفظ يستعمل في الشيء
وضده كما قال :

أليس ورأى أن أدب على العصا فيما من أعدائي وسأمنى أهلي

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم .

خشينا : أي اخفنا ، أن يرهقهما : أي يجهدهما ، طغيانا : أي مجاوزة للحدود
الإلهية ، زكاة : أي طهارة من الذنوب ، رحما : أي رحمة كالكثر والكثر ، عن
أمرى : أي عن رأيي واجتهادي ، ما لم تستطع : أي تستطع ماضيه استطاع الذي
أصله استطاع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأمور التي رآها موسى عليه السلام حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبرا ، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبتته - أزدق ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره ، بما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر » .

وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر ، وهذه لا يطلع الله عليها إلا بعض خواص عباده ، ومن ثم اعتراض موسى على ما رأى ولم يعلم ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ، ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى في معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

وخلاصة المسائل الثلاث — إنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لفصمها الملك وفاتت منافعها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه في دينهم ودنياهم ، ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضررا من سقوطه ، إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام .

ومجمل الأمر في ذلك — إن الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائقتها في أنفسها ، وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسمية ، ومن ثم قال في صفة علمه : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال

المعرفة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبينة على الظواهر إلى علوم الباطن المبينة على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليها في الواقع .

الإيضاح

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أي أما فعلى ما فعلت بالسفينة ، فلأنها كانت لقوم ضغفاء لا يتقرون على دفع الظلمة ، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها ، فأردت أن أعيها بالخرق الذي خرقتة ، وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة للاستعمال غصبا ، ويدع كل معيبة ، فعبثها لأرده عنها .

وخلاصة ذلك — إن السفينة كانت لقوم مساكين معجزة يكتسبون بها ، فأردت بما فعلت إعاتهم على ما يخافون ويمجزون عن دفعه من غصب ملك قدامهم ، من عادته غصب السفن الصالحة .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أي وأما الغلام فإنه كان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يجهلها حبه على متابعتة على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزننا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فأبرض أمرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ، وفي الحديث « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُهَا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وخلاصة ذلك — إنا علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه في دينه لفرط خبهما له .

(فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما) أي قال هذا العالم :

أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولداً يكون خيراً من هذا الولد دينا وصالحاً وأقرب
 عطفاً ورحمةً بأبويه وبراً بهما وشفقةً عليهما .
 (وأما الجدار فكان الغلامين يتيمن في المدينة وكان تحته كنز لها وكان أبوها
 صالحاً فأراد ربك أن يبائعا أخذهما ويستخرجا كنزها رحمة من ربك) أى إن الداعي
 إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتيمين في المدينة وكان أبوها صالحاً ، فأراد
 الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعايةً لخطئهما ورعايةً لصلاح أبيهما ، فأمرني
 بإقامة الجدار لتلك المضالحة ؛ إذ لو سقط ذلك لضاع الكنز وقد كان مشرفاً على السقوط .
 (وما فعلته عن أمري) أى وما فعلت الذى رأيتنى أفعله عن رأيتى ومن تلقاه
 نفسى ، بل فعلته عن أمر الله إياى به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة
 دماهم لا يجوز إلا بالوحى والنص القاطع .

(ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أى هذا الذى ذكرت لك من الأسباب
 التى من أجلها فعلت الأفعال التى استكرتها ، هو بيان ما تتول إليه الأفعال التى
 ضقت بها ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداءً .
 تبيينه

لذكر هذه القصة فى الكتاب الكريم فوائد :

(١) ألا يُعْجَب المرء بعلمه ، وألا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه ، ففعل فيه

سراً لا يعرفه .

(٢) إن فيها تأديبا لنبيه بترك طلب الاستعجال بعبودية المشركين الذين كذبوه
 واستهزؤوا به وبكتابه ، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم ووارهم بالسيف فى الدنيا
 واستحقاقهم من الله فى الآخرة الجزى والعذاب الدائم .

(٣) إن ما حدث فيها يجرى مثله كل يوم فى هذه الحياة ، ألا ترى أن قتل
 الغلام وهو صغير لا ذنب له يشبه الطاعون الذى يهلك الأمم ويفتك بها فتكا ذريعا .

والبهائم التي تفتك بها السباع أو تأكلها الناس - ولو تأمل الناس حكمة ذلك لعلموا أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام أو نحوها ولم يموت منهم أحد لضاقت بهم الأرض ، ولما تواجعا ، ولأكل الابن أباه ، ولأصبحت الأرض منقذة قدرة ، ولهلك الناس جميعا ، وأن أكل كواشر الطير لصغارها ليخلو الجو والأرض من الحيوان المزدهة ، ولولا ذلك لأصبحت الأرض مضره بالناس والحيوان ، فاقنناصها رحمة ونعمة على الناس ! وأن خرق السفينة التي هي لساكين أشبه بموت بقرة فلاح فقير بجانبه رجل غني لم تصب بقرته بسوء ، وذلك إنما يكون لحكم لا يملكها إلا الله ، وقد يكون منها أن الفقير حين موته يخرج من هذا العالم خفيفا لا يحزنه شيء ، وأن الغني إذا لم يهذب نفسه تكون روحه مجذوبة إلى هذا العالم متطاعه إلى ما فيه ، فيصير في حسرة حين موته .

وأن ذكر الجدار وإقامته تشيران إلى كل من يرى أنه ليس أهلا للنعمة ظاهرا وقد أغدقت عليه ، فأهل هذه القرية اللؤماء الأشجاء ليسوا أهلا للإكرام ، وخلاصة ما قاله الخضر : إن هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس بل هي من أعمال الله ، وإنما كنت واسطة فيها ، فهي نماذج تفعل ربكم في هذه الحياة .

قصص ذى القرنين ويا جوج وما جوج وسد هما

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)
 إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْبِ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْبُ فِي عَيْنِ حَمِةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِنَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)
 قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
 يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا
 تَاطُّعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا
 بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
 وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ
 إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ
 أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي
 بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا
 سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ
 عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَبَأُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَبَأُوا لَهُ تَقْبًا (٩٧)
 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
 حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 فَجَمَعْنَاهُمْ جَمَاعًا (٩٩)

شرح المفردات

ذكرا : أى نبأ مذكورا وهو القرآن ، وممكنه وممكن له ، كمنصحه ونصح له :
 أى مهد له الأسباب وجعله قادرا على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى ،
 سببا : أى طريقا يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة ، حثمة : أى ذات حمأة وهى
 الطين الأسود ، حسنا : أى أمرا إذا حسن ، نكرا : أى منكرا فظايعا ، الحسنى : أى
 المثوبة الحسنى ، يسرا : أى سهلا ميسرا غير شاق ، سترا : أى بناء وكانوا إذا طلعت

الشمس تغوروا في المياه وإذا غربت خرجوا ، خبرا : أى علما يتعلق بظواهره وخفاياه ،
 البدين : أى الجبلين ، يفهمون : يفهمون ، خرجا : أى جُفلا من أموالنا على سبيل
 التبرع ، والخراج : ما لزمك أداؤه ، بقوة : أى بما يتقوى به على التقصود من الآلات
 والناس ، ردما : أى حاجزا حصينا ، والردم : أكبر من السد وأرثق يقال ثوب
 مردم : أى فيه رفاع فوق رفاع ، وزبر : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة :
 وهي القطعة العظيمة ، والصدقين : واحدها صدف ، وهو جانب الجبل ، قطرا : أى
 نجاسا مذابا وقيل رصاصا مذابا ، أن يظهرود : أى أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه
 وملاسته ، رحمة : أى أثر رحمة ، دكاء : أى مثل دكاء وهي الناقة لاسنام لها ؛ والمراد
 بها الأرض المستوية ، حقا : أى ثابتا واقعا لا محالة ، يموج : أى يضطرب اضطراب
 البحر ، والصور : قرن يفتح فيه .

المعنى الجملى

هذه القصة رابعة ثلاثة من القصص التي ذكرت في هذه السورة ، وقد قدمنا
 أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبي صلى الله
 عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية لا يدري ما صنعوا ،
 وعن الروح؟ فنزلت سورة الكهف .

وقبل الشروع في تفسير هذه الآيات الكريمة لا بد من بيان أمور تمس إليها
 الحاجة ، من ذو القرنين ؟ من يأجوج ومأجوج ؟ أين سد ذى القرنين ؟

ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى تلميذ
 أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول الذى انتشرت فلسفته في الأمة الإسلامية ،
 وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وكان من أهل مقدونيا وحارب الفرس واستولى

على ملك دارا وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك ، ثم حكم مصر وبنى الاسكندرية ؛ والدليل على ذلك أنه لم يعرف التاريخ أن أحدا من الملوك دوّخ العالم وسار شرقا وغربا وغلب أكثر المعمور غيره .

ويرى أبو الرِّيحَان البيروني المنجم في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أنه من حَمِيرٍ واسمه أبو بكر بن إفريقيش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومرّا كُس وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية فسُميت القارة كلها باسمه ، وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغرب ينتهى أسباب ملك من كريم مرشد
فراى مآب الشمس عند غروبها فى عين ذى خُلب وثأطٍ حرمد^(١)
وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس

والدليل على أنه حَمِيرِيٌّ أن الأذواء إنما يعرفون في بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التي حكمت من سنة ١١٥ ق م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية منها ، وملوكها يسمون التبابعة واحدم تبع (بضم التاء وتشديد الباء) .

يأجوج وماجوج

يأجوج : هم التتر ، وماجوج : هم النول ، وأصاهما من أب واحد يسمى (ترك) وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيرا ما أفسدوا فى الأرض ، ودمروا كثيرا من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا

(١) الخاب : الطين . والثأط : الحمأة . والحرمد : الأسود .

في العهد القديم كأمة التوحيد والسَّمْرِيَّانِ وَالهُونَ ، وكثيرا ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزلوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة ، إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة (تموجين) الذي لقب نفسه (جنكيزخان - ملك العالم) بلغة المغول ؛ فخرج في أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبة المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خوارزم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يسمع بمثله في التاريخ .

ولما مات جنكيزخان قام مقامه ابنه (أقطاي) وأغار ابن أخيه (باتو) على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ودمر بولنيا و بلاد المجر وأحرق وخرّب .

وبعد أن مات أقطاي قام مقامه (جالوك) فغارب الروم وألزم ملكها دفع الجزية ثم مات (جالوك) فقام مقامه ابن أخيه (منجو) فكلف أخويه (كيلاي) و (هولاكو) أن يستمرا في طريق الفتح ، فأخضع كيلاي بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم في دجلة وجعلوها جسرا يمررون عليه نجيوهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيزخان على آسيا كلها وأوربا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشئوا أربع ممالك ، فاخصت أسرة كيلاي بالصين والمغول ، وملك جاباقاي أخو أقطاي تركستان ، وملك ذرية باطرخان البلاد التي على شواطئ نهر فلجا ، وصارت الروسيا تدفع لها الجزية زمنا طويلا ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس و بغداد حتى بلاد الشام - وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف وابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا .

سد ذى القرنين

كانت البلاد التي شرقي البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة (السلاف) وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة (باب الأبواب) أو (دربت) بجبل قوقاف وقد كشفوه في القرن الحاضر وهو غير السد الشهير الذي بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون في عمالة (بلخ) واسمه (باب الحديد) بمقربة من مدينة (ترمذ) وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ، ومر به أيضا (شاه روخ) وكان في بطائه العالم الألباني (سيلد برجر) وذكر السد في كتابه وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر ، وكذلك ذكره المؤرخ الألباني (كلا فيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند انتهى ملخصا من مقتطف سنة ١٨٨٨ م .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقا ، وهي إحدى المعجزات التي أيدها التاريخ وعلم تقويم البلدان ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب» وقد صدق رسوله، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقي خليفة رسمي في مصر ، وزال ملكهم بتاتا في حدود الألف ، وتفرق ملك الإسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

الإيضاح

(ويسألونك عن ذى القرنين) أى تسألك قريرش بتلفين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

(قل سأنبئ عليكم منه ذكرا) أى قل لهؤلاء المتمتعين : سأقص عليكم قصصنا وأفيا جامعا لما تريدون ، أعلمنيه ربي وأخبرني به .

ثم فصل ذلك فقال : **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ النُّجُومِ سَاقِطًا** (إنا يمكننا في الأرض وأتيناها من كل شيء سبباً) أي يمكننا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ، وأتيناها من كل شيء أرادته من مهام ملكه وبسطة سلطانه. طريقاً يوصله إليه ، فأتيناها العلم والقدرة والآلات التي توصله إلى ذلك . **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا** (فأتبع سبباً . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) أي فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقاً يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الاطلاطي (المحيط الأطلسي) وجد الشمس تغرب في عين ذات حمأة وطين أسود . **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا** وخلاصة ذلك — إنه بلغ بلاداً لا بلاد بعلمها تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مراكش ووصل إلى البحر فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون كأنه ظن وماء . **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا** (ووجد عندها قوما) أي ووجد عند تلك العين قوما كفاراً يخبره الله لين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله : **وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا** (قلنا إذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) أي قلنا له بطريق الإلهام إما أن تقتلهم إن هم لم يقرؤا بوحدانيتي وأبدعوا لك فيما تدعوهم إليه من ظاعتي ، وإما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد ، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام . (قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً) أي قال ذو القرنين لبعض خاصته وبطانته : أما من ظلم نفسه فأصر على الشرك بربه فسنعذبه بالقتل ثم يرجع إلى ربه في الآخرة فيعذبه عذاباً منكراً في نار جهنم . (وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسرا) أي وأما من صدق بالله ووحدانيته وعمل عملاً صالحاً في الدارين فله المثوبة الحسنى جزاءً وفاقاً على تلك الحلال الجميلة التي عملها في دنياه ، وستعلمه في الدنيا ما يتيسر لنا

تعليمه مما يقربّه إلى ربه ، ويلين له قلبه ، ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

(ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ثم قفل راجعا من مغرب الشمس وسلك طريقا موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من المعمور ، وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكتهم ، ولا أشجار تظلمهم وتستترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لا تحمل بنيانا ، بل لهم سرور يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشغلون بتحصيل مهماتهم ، وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ووجد قوما لا لباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء أو فى سراديب فى الأرض .
(كذلك) أى إن أمرضى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرف المشرق والمغرب ، ومن قبله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن وبسطة الملك مما لم يتح لكثير غيره .

(وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا شئ منها وإن تفرقت أهمهم وتقطعت بهم الأرض كما قال « لَا يَخْفَى عَلَيْنَا شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — إنه كما وصف وفوق ما وصف بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف

الخبير .

(ثم أتبع سببا) أى ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من مطلع الشمس إلى الشمال .

(حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا)

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، (وقد تقدم وصف مكانهما بالتحديد كما رآه
السائحون في القرن الخامس عشر الميلادى) وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون
يفهمون كلام أتباعه ولا كلام غيرهم ، لبعدهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ،
إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وغوى الحال .

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) أى قال مترجمهم :
إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب
الإفساد (تقدم تحقيق القول فى ذلك) .

(فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟) أى فهل تحب أن
يجعل لك جُعلا من أموالنا فتجعل بيننا وبينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إلينا .
وخلاصة ذلك — إنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه حتى
يجعل بينهم وبينهم سدا .

(قال ما مكنى فيه ربي خير) أى قال ذو القرنين : إن ما مكنى فيه ربي
من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال — خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة
بى إليه ، وهذا نحوه ما قاله سليمان عليه السلام « أُمِّدُونِي بِمَالٍ مِمَّا آتَانِي اللَّهُ
خَيْرًا مِمَّا آتَاكُمْ » .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا مادامت
قادرة على إغايتها .

وخلاصة ذلك — ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

(فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) أى ولكن ساعدونى بفعلة
وصناع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سدا منيعا ،
وحاجزا حصينا أمتع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

(آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله

نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا) أى جيئوني بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ بيني شيئا فدينا حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساويا لهما في العلو ، قال للعملة : انفضخوا بالكيران في زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ففعلوا ، وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوجها ، فصب النحاس المذاب على الحديد الحمى فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد وصار جبلا صلبا .

(فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له تقبا) أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتعاه وملاسته ، ولا استطاعوا تخبه لصلابته وثخائته .

(قال هذا رحمة من ربى) أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزا بينهم وبين يأجوج ومأجوج يمنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فسادا .

(فإذا جاء . وعد ربى جملة دكاء) أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جملة ربى بقدرته وسلطانه أرضا مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

(وكان وعد ربى حقا) أى وكان كل ما وعده به سبحانه حقا ثابتا لا ريب فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلائله فعاثوا فى الأرض فسادا من الشرق والغرب وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد كما علمت ذلك فيما سلف .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيزخان أن سلطان خوارزم الساجوق قتل رسله وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده ، فاغتناظ ، وكتب إلى السلطان كتابا قال فيه : كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى . . . أتحركون الفتنة النائمة

وتلهبون الشرور الكامنة... أو ما جاءكم عن نبيكم ، (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيكم ، وعن ظلم الضعيف غويكم) أو ما بلغكم عنه مرشدوكم ، أتركوا الترك ما تركوكم ، وكيف تؤذون الجار ، وتسيئون الجوار . ونبيكم قد أوصى به ... ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياي إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، سينصر الله المظلوم ويلينسلكم عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب أه ملخصا .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فرعا يقول « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتبح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلقت بإصبعه الأبهام والتي تاليها ، قالت زينب قلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ، فقال هم إذا كثرت الخبث » .

ولقد اتسع ذلك الفتح من هذا التاريخ شيئا فشيئا حتى فتح عن آخره في القرن السابع الهجرى ، وخرج هؤلاء القوم كما قدمنا وقد عثر على آثاره كما علمت فيما سلف . (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) أى ويرم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون في الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله في سورة الأنبياء : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون في النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى ، كما تقدم نقلا عن مؤرخى العرب والإفرنج .

كل هذا قبل الفتح في الصور بزمن مجهول غير معلوم .
(وفتح في الصور فجمعناهم جمعا) أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ في الصور وجمعنا الناس جمعا ، وأحضرناهم للحساب كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » وقوله : « وَجَسَّرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نِعَادًا مِنْهُمْ أَحَدًا » .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنََّّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦)

شرح المفردات

عرضنا: أى أظهرنا وأبرزنا، غطاء: أى غشاوة محيطية بها، عن ذكرى: أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدي وتمجيدى، أولياء: أى معبودات يقونهم بأسى، أعتدنا: أى هيأنا، نزلا: أى طعما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم، ولقائه: أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك، الهزؤ: السخرية والاحتقار.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ في الصور لجمع الخلائق وقيامهم من قبورهم بعد أن تقطعت أوصالهم وتمزقت أجسامهم، ويجمعهم في صعيد واحد للحساب والجزاء - قفى على ذلك بيان أنه إذ ذاك يبرز النار للكافرين بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا، وفى ذلك تعجيل الهم والحزن لهم، من قبل أنهم تصاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق وحسبوا أن اتخذهم أولياء من دون الله ينجيهم

من عذابه ، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم ، وكل ذلك وهم وخيال فلا فائدة منه في ذلك اليوم ، ولا نقيم له إذ ذاك وزنا .

روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنتم ؟ وضأحب القرن قد التقم قرنه ، وحنى الجبهة وأصغى الأذن ، متى يؤمر أن ينفخ ؟ ولو أن أهل مِني اجتمعوا على القرن أن يقولوه من الأرض ما قدروا عليه ، قال : فأبلس (بأس وتبحر) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليهم ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » والحديث يشير إلى قرب الساعة وأنها أوشكت تجيء .

الإيضاح

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) أى وأبرزنا جهنم يوم ينفخ في الصور وأظهرناها للكافرين بالله حتى يروا أهوالها وشديد نكالها ويسمجوا لها تعظيماً وزفيراً ، وفي هذا تعجيل لله والجزن ومعرفة أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفاً .

ثم بين أوصافهم التي استحقوا بها هذا الجزاء فقال :

(الذين كانت أعينهم في غطاء ، عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمياً) أى إن هذا العذاب إنما نالهم من جرأه أنهم كانوا لا ينظرون في آيات الله فيفتكروا فيها ولا يتأملون حججه فيعتبروا بها وينيبوا إلى ربهم وينقادوا لأمره ونهيه ، وكانوا لا يطبقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكرهم به ، وبيانه الذي بينه لهم في آى كتابه ، فتغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال : « وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

ذلك أنهم لما دنسوا أنفسهم باجتراح المعاصى والآثام ، وأطاعوا وساوس الشيطان وما نصبه لهم من الحياتل ، طبع الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

ثم بين أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لا يجديهم نفعا فقال :
 (أفسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) أى أظن الذين
 كفروا بى واتخذوا عبادى الذين هم فى قبضتى وتحت سلطانى كالملائكة وعيسى
 - معبودات من دونى - أظنوا أن ذلك يجديهم نفعا أو يرفع عنهم ما يحل بهم من
 النكال والوبال .

وخالصة هذا - أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم ، وأنه لا يفضينى - كلاً .

ثم أكد هذا الإنكار بقوله :

(إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً) أى إنا هيأنا لهؤلاء الكافرين جهنم عوضاً
 مما أعدوه لأنفسهم من الأولياء الذين اتخذوهم زادا ليوم المعاد .

والخالصة - إنا اعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر -

عدة هى جهنم ونس المصير .

وفى ذلك تهكم بهم وتخطئة لهم فى حساباتهم ذلك ، وإيماء إلى أن لهم وراء

جهنم ألوانا أخرى من العذاب ، وما جهنم إلا نموذج منه .

ثم ذكر سبحانه ما فيه تنبيه إلى جهلهم فقال :

(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون

أنهم يحسنون صنعا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل

الكتابين اليهود والنصارى : هل نخبركم بالذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبعثون به

ثواباً وفضلاً فنالوا به هلاكاً ووارا كالمشترى سلعة يرجوها ربها فخاب رجاءه

وخسر بيعه ووكس فى الذى رجا فضله .

وخالصة ذلك --- إنهم عملوا بغير ما أمرهم به الله ، وظنوا أنهم بفعلهم هذا

مطيعون له ، وأنهم يحسنون صنعا ، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين ، وفى ضلال

مبين ، وأن سعيهم الذى سعوا فى الدنيا ذهب هباء ، فلم يجدهم تقيرا ولا قاطميرا .

ثم بين السبب فى بطلان سعيهم فقال :

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) أى إن هؤلاء الأحمسين أعمالهم الذين كفروا بالدلائل المنبئة فى الآفاق والآنفس التى تدعو إلى توحيده ، وكفروا بالبعث والحساب وما يتبع ذلك من أمور الآخرة ، ومن ثم حبطت أعمالهم ، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها ، بل لهم منها عذاب وخزى طويل ، ولا تثقل بها موازينهم ، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة وليس لهم منها شئ .

ثم بين ما لهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك الكفر فقال :

(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم رسل الله ومعجزتهم التى أظهرها على أيديهم هزوا وسخرية ، فلم يكتفوا بالكفر بها ، بل ارتكبوا هذه الحماقة التى هى أعظم أنواع الاحتقار .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

شرح المفردات

الفردوس: البستان بالرومية . وقال السدى: إنه الكرم بالنبطية وأصله فرداسا ، حولا : أى تحولا ، والمداد: ما يمد به الشئ ؛ واختص بما تمد به الدواة من الحبر ،

كلمات ربى : معلوماته غير المتناهية ، والرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة ،
ولقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه للكفار من العذاب فى جهنم ، وأن ذلك كان
جزاء بما كفروا برهيم واستهزأهم برسله وآياته - أردف ذلك بما يرغب المؤمنين
فى العمل الصالح من جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقا على إنابتهم إلى ربهيم
وإخباتهم إليه ، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذى ذكر فيه الدلائل والبيّنات
على وحدانيته وإرسال الرسل والبعث والجزاء مما يدل على عظيم فضله ، ثم أعقب
ذلك ببيان أن العمل لا يتقبل إلا إذا صاحبه أمران : أن يكون خالصا لوجهه تعالى ،
وأن يكون مبرا من الشرك الخفى والجملى .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمع سمع الله به ،
ومن رأى رأى الله به » أى من عمل عملا مراعاة للناس ، وليشتهر به شهرة الله
يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك
فيه غيرى تركته وشركه » .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أى إن
الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا صالح الأعمال ابتغاء
الثوبة من ربهيم - لهم بساتين الفردوس فى أعلى الجنة وأوسطها منزلا .
أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى فَمَا لَوْهَ الْفَرْدُوسِ ، فَإِنَّهَا أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمِنْهُ تَفْجُرُ الْأَنْهَارُ » .

(خالد بن الوليد فيها لا يبغون عنها حولا) أى لا يبتغي فيها أبدا لا يبغون عنها تحولا إلى غيرها ، قال ابن عباس : لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى .

وخلاصة هذا — إنه لا مكان أعز منها عندهم ، ولا أرفع شأننا حتى تنازعهم إليه أنفسهم ، وتطامح إليه أبصارهم ، ثم نبه إلى عظيم شأن القرآن بقوله :

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) أى قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى تكتب به كلمات ربي وعلوه لنفد ماء البحر قبل أن تنفذ تلك الكلمات ، ولو مددنا ماء البحر بمثل ما فيه من الماء مددا وعونا ، لأن مجموع المنتاهين متناه ، وعلوم الله وحكمته لا نهاية لها ، والمنتاهى لا يفي البتة بغير المنتاهى ، ونحو الآية قوله « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهِ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَتَّانِدَاتٌ كَلِمَاتُ اللَّهِ » .

روى أن اليهود قالوا يا محمد : نزع أننا قد أوتينا الحكمة ، وفي كتابك « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » يريدون بذلك الاعتراض بوجود التناقض فأنزل الله الآية ردا عليهم .

وقد أثبت العلم الحديث ما يتبين منه أن في كل عالم من العوالم الأرضية والسموية ما لا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتدى إليها العلماء فى العصر الحاضر .

قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة (بنسلفانيا) بأمرىقا فى ٧ من مارث ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

- (١) إن عمر الأرض نحو ألفي مليون سنة .
- (٢) إن الإنسان لم يعيش على الأرض إلا منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .
- (٣) إن الشمس ستظل بعد ألف مليون سنة كما هي الآن تقريبا ، وتدور الأرض حولها كما هي الآن .
- (٤) الإنسان في المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشتة على وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .
- (٥) مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل في علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوامل الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوامل أخرى لانهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفي مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض في الماضي .
- (٦) الأجرام التي حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذي بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لانهاية له .
- (٧) الأجرام العلوية التي نراها والتي لانهاها كرية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .
- (٨) الإشارات اللاسلكية تنبعث من جهاز لاسلكي كبير تدور حول الكرة الأرضية في أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التي بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدأ سفرنا .
- (٩) إننا لو صنعنا منظارا قويا (تلسكوبا) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التي كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .
- (١٠) إن الإنسان اليوم طفل في العلوم ، وربما علم في المستقبل ما لا يتخيله الآن .
- (١١) إن سرعة النور في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله في ذلك

الكهرباء اللاسلكية ، لأشياء واحد في جوهرها ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروي مائة ألف مليون سنة ، أى إن النور يدور في هذا العالم المملوء بالأجرام العالوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض في سبع ثمانية ، فما أبعد النسبة بين سبع ثمانية ، وبين مائة ألف مليون سنة .

إلا أن الأرقام لا تقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروي .

(١٢) الشمس أكبر من الأرض حجما بـ ثلثمائة ألف مرة ، وما هى إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروي ، وهى واحدة من أسرة من أسرار الكائنات التى فى الفضاء الكروي التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة ، وشمسنا وتواجها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

(١٣) إن هناك شذما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تم نشوؤها أو لانزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

(١٤) يقول (هويل) إن مرقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمرىكا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، وفيها من المادة ما يكفى لخلق ملايين الشموس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفرا ، وهذا العدد يعطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .

(١٥) أضعف النجوم المعروفة هي نجم (وولف) ونوره جزء من عشرين جزءاً من نور الشمس ، ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس .

وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض ، وأكبر النجوم الجوزاء ، وهي أكبر من الشمس خمسا وعشرين مليون مرة ، ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباب) .

(١٦) إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصانا من كل بوصة مربعة وبعض النجوم التي هي أعظم من الشمس تشعّ نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

(١٧) إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة ، ففي اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

(١٨) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين ملايين السنين دون أن تنطفئ .

(١٩) عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة هـ .

هذه آراء علماء الفلك في العصر الحاضر استنبطوها بالحساب تارة ، وبوجه التقریب تارة أخرى ، مما يرشد إلى تفسير قوله تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) الآية .

فهذه هي الكلمات الإلهية التي أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار في البحث عن علم شئ منها ، ولا يزال الناس في عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما للهكم إليه واحد) أى قل لهم أيها الرسول : إنما أنا بشر مثل ما أنتم كذلك ، ولا أدعى الإحاطة بكلمات الله جلت

قدرته ، ولا علم لي إلا ما علمني ربي ، وأن الله أوحى إلي أن معبودكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا - هو معبود واحد لا ثاني له ولا شريك .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى فمن كان يطعم في ثواب الله على طاعته فليخلص له العبادة ، وليفرد له الربوبية ولا يشرك به سواه ، لا إشراكا جانيا كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكا خفيا كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح في الحديث ، وروى مستفيضا في الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لا يقبل ، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » نسأل المولى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، لا يراد به رضا أحد من خلقه .

إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

- (١) وصف الكتاب الكريم بأنه قيم لا عوج فيه ، جاء للتبشير والإنذار .
- (٢) ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ليرى كيف ينتفع به .
- (٣) ما جاء من قصص أهل الكهف ليس بالعظيم إذا قيس بما في ملكوت السموات والأرض .
- (٤) وصف الكهف وأهله ، مدة لبثهم فيه ، عدد أهله .
- (٥) أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالجلوس مع فقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابة لدعوتهم .
- (٦) ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .
- (٧) ضرب مثل يبين حال فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين .

- (١) ضرب المثل لحال الدنيا .
- (٩) عرض كتاب المرء عليه في الآخرة وخوف المجرمين منه .
- (١٠) عداوة إبليس لآدم وبنيه .
- (١١) قصص موسى والخضر .
- (١٢) قصص ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج ، وكيف صنع ذو القرنين .
- (١٣) وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة في الآخرة .
- (١٤) ما يلقاه المؤمنون من النعيم في الآخرة .
- (١٥) علوم الله تعالى لانهاية لها .
-